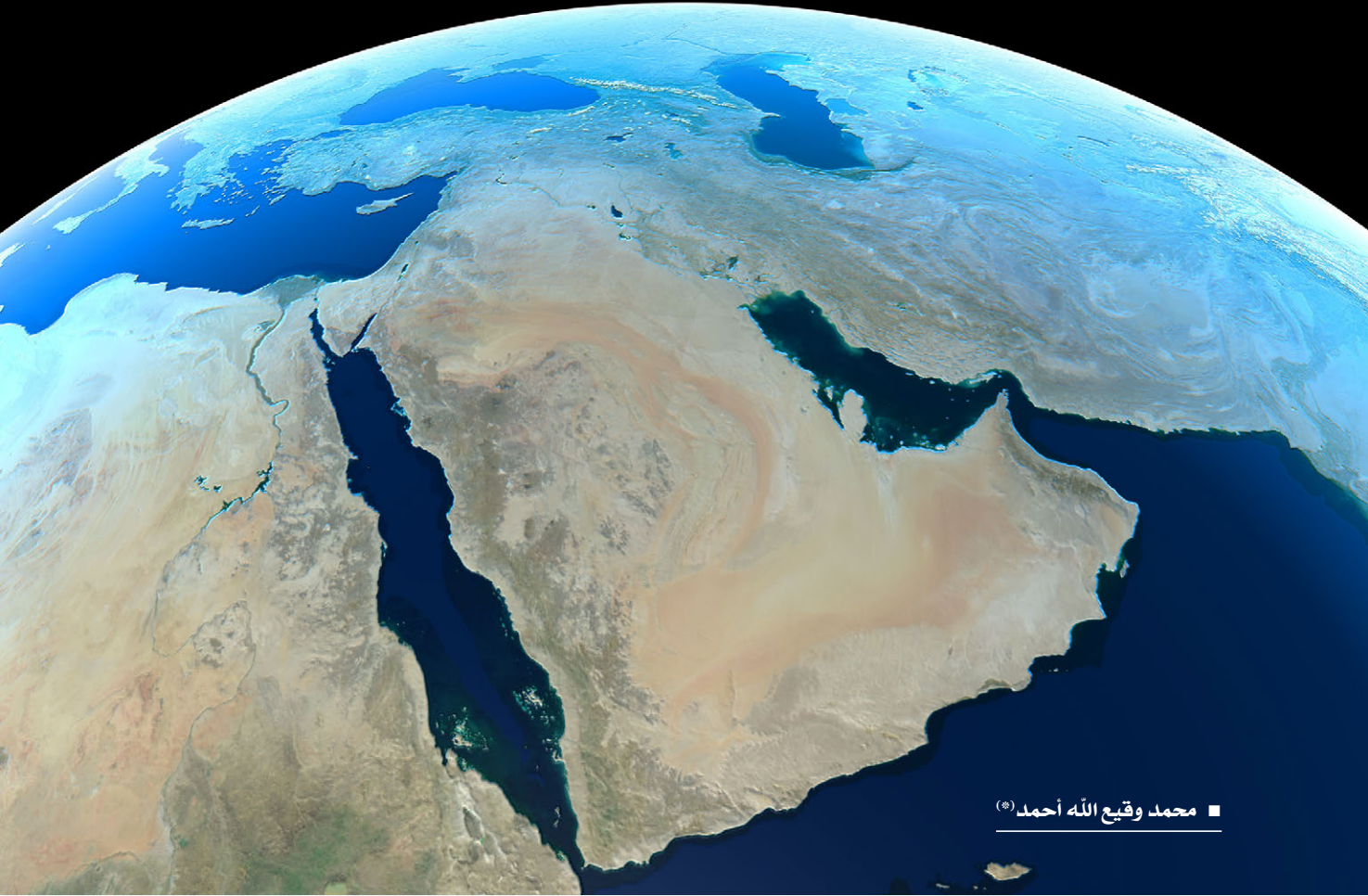




نظرة معاصرة إلى أيام العرب وحالة انفراط السلام



■ محمد وقيع الله أحمد (*)

تمهيد:

اتسم العصر الجاهلي بأنه عصر نزاعات استفاضت بها أيام العرب المشهورة التي خلدها التاريخ أمثلة للحروب التي تشيرها الحماقات، وتُضرم نيرانها كلما خبت التُّرات والنَّارات. وبذا ظلت حالة الحرب هي الحالة الأصل في الحياة الجاهلية، ولم تتخللها إلا حالات سلام معدودة: «فقد تفرقت القبائل العدنانية بأحيائها وبطونها وقبائلها.. وكان كل منها مستقلاً بأحكامه وأعماله، يتخاصمون، ويتحاربون، على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ويندر أن يجتمعوا تحت راية واحدة، يد لك على ذلك أنهم لم يجتمعوا في الجاهلية كلها إلا ثلاث مرات»^(١).

(*) جامعة خليفة للعلوم والتكنولوجيا والبحوث، الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

(١) جورج زيدان، العرب قبل الإسلام، (القاهرة)، دار الهلال، ٢٠٠٦ م، ص ٢٥١. وقد ذكر ابن الأثير تفصيل ذلك، الكامل في التاريخ، ١٤١٥ هـ، ص ٤٠٠.

هذا ما حققه المؤرخون، ومنه يمكن القول إن تلك الحروب هي أبرز ما في سجلات وصحائف تاريخ العرب، قبل الإسلام. وكانت هذه الحروب بعض أهم الأغراض التي دارت عليها قصائد الشعر الجاهلي ومقطوعاته التي نعتد عليها في التصوير والتوثيق.

لكن لا بد من التنويه إلى أن العصر الجاهلي لم يخل من متأملين استبطنوا أحواله بعمق وحذق، وخرجوا بالعظات التي عبروا عنها في شعر جزل منيف.. بيد أن الشعر لم تكن له فائدة عملية في أخذ الناس إلى ناحية السلام؛ لأن الشاعر ليس نبياً، ولا صاحب سلطان يفرض به ما ينصح به للناس.

ولما جاء الإسلام هرع الناس إليه؛ لأنه جاء بما شجب عهود الفوضى، وجاء بالآلة التنفيذية التي تفرض واقع السلام.

ولم يستغرب أن تكون أول المجتمعات استجابة للإسلام أكثرها تعرضاً لنيران الحروب، وهي جماعات الأوس والخزرج التي انخرطت في الحروب التي كادت تبيد خضراءهم وتأتي عليهم أجمعين.

١ مظاهر انفراط السلام في الحياة الجاهلية:

وأيام العرب هي أبرز مظاهر انهيار حالات السلام في مجتمعاتهم. وقد نقل ابن منظور عن ابن السكيت أن العرب كانت تطلق لفظ الأيام في معنى الوقائع، وقد زادت، كما روى أبو الفرج الأصبهاني، عن ألف وسبعمائة يوم.

ومن أشهرها: حرب البسوس، وكان سببها أن ناقة كسرت بيض حمام، ويروي لنا القلقشندي القصة ببعض التفصيل، فيقول: «يوم البسوس، وهو من أعظم حروب العرب، كان بين بكر بن وائل، وتغلب بن وائل. وكان للبسوس، خالة جساس، ناقة، فرأها كليب بن ربيعة قد كسرت بيض حمام في حماه كان قد أجاره، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت الحروب بسبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة»^(١).

فسبب الحرب التي دامت أربعة عقود هي ناقة لا بشر، ومع ذلك أخذ البشر بجريرتها، ولم تكن تلك إلا حماقة من حماقات الجاهلية، واستعدادها لخوض الحروب لأدنى التعللات. وأما نتائج الحرب فقد تمثلت في إهلاك مقاتلي

(١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص ٦٤.

القبيلتين، وفي طليعتهم قاداتهم الكبار، وإضعاف القبيلتين، إذ قل عدد أفرادهما بالموت أو الهجرة إلى البحرين. وأطمع ضعف القبيلتين الأحباش، فأعدوا العدة للغزو، وأخذوا اليمن، وتهيأوا للزحف على بقية أرض العرب^(٢).

وفي هذه الغضون ظل العرب يتقاتلون، واحتدمت المعارك بين تميم من مضر وبكر بن وائل من ربيعة، رغم جوارهما في الأرض، أو ربما بسبب ذلك الجوار، الذي قاد إلى التنازع حول المرعى، ونشبت بين القبيلتين ١٢ معركة حامية، انتصرت تميم في نصفها، وبكر في النصف الآخر. ومن أشهر الأيام: ذي طلوح، ولم يكن سببه سوى سوء تفاهم يسير؛ وذلك أن عميرة بن طارق اليربوعي، التميمي، تزوج مرية بنت جابر العجلي البكرية: «وكان له في بني تميم امرأة أخرى، تعرف بابنة النطف، من بني تميم، فأتى أبجر أخته يزورها وزوجها عندها. فقال لها أبجر: إني لأرجو أن آتيك بابنة النطف امرأة عميرة. فقال له: ما أراك تبقي علي حتى تسلمني أهلي. فندم أبجر، وقال له: ما كنت لأغزو قومك، لكنني مستأسر في هذا الحي من تميم»^(٣). وهكذا قاد سوء تفاهم يسير، كان بالإمكان تداركه، إلى قتال عنيف وطيس.

ومن أشهر المعارك: يوم الوقيظ ومعركة يوم الشيطان، وهما واديان خصيبان كانا لبكر بن وائل.. ويوم المشقر، أو الصفقة، بين فارس وتميم. ويوم الفجار، ونقل صاحب السيرة الحلبية، عن ابن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت». وقد كان لرسول الله ﷺ من العمر حينها أربع عشرة سنة. قال الحلي: وهذا الفجار الرابع، وهو فجار البراء.

وذكر الحلي خبر يوم الفجار الأول، وسببه، فقال: إن رجلاً يقال له بدر بن معشر الغفاري جلس يوماً بسوق عكاظ، وبسط رجله، قائلاً: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف. فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته، وأسقطها. واقتتل القوم على أثر ذلك قتالاً شديداً. وحينذاك كان لرسول الله ﷺ من العمر عشر سنين.

ومن أشهر أيام العرب: يوم بُعات، وقد جاء ذكره في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان يوم بُعات يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق

(٢) دراسات في تاريخ العرب: عصر ما قبل الإسلام، دار المعارف، ١٩٦٧م، ص ٣٧٨.

(٣) الكامل في التاريخ، ١٤١٥هـ، ج ١/ ص ٢٠٩.

ملؤهم، وقتلت سروراتهم، وجرحوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»^(١). وقد كان من تقاليد العرب أن الشخص الأصيل لا يقتل بالشخص الحليف؛ ولذلك لما قتل رجل من الأوس حليفاً للخزرج أرادت الخزرج أن يقيدوه فامتنعوا، ف وقعت عليهم الحرب لهذا السبب»^(٢). وقيل إن حرب بعثت دامت أكثر من مائة سنة.

هذه نماذج من أيام العرب ومآلاتها ذكرناها باختصار، وأخبارها منشورة في مراجع تاريخ الجاهلية، وهي أكثر من ألف وسبعمائة يوم، تدلُّ أسبابها، ونتائجها، على مدى اتساع الخرق في الحياة الجاهلية، واتسامها بحالة العداء، وانفراط عقدة السلام.

٢ أسباب انفراط السلام في الحياة الجاهلية:

فمن أسبابها ما يرجع إلى الطبائع النفسية العربية، ومنها ما يرجع إلى الظروف الاقتصادية، ومنها ما يتعلق بعدم وجود رابطة روحية دينية بين الجاهليين.

ومما يتصل بطبائع الجاهليين العدوانية، ذلك القانون التاريخي الذي انتبه إليه الإمام ابن خلدون، وقرر في صياغته له أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب؛ وذلك لأن من طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، ولأن رزقهم في ظلال رماحهم، ولأنه ليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه^(٣).

فالتعدي واللصوصية لم تكن من منكرات الأفعال، بل ربما كانت شرفاً لدى بعض الأقوام، وكان الأخذ بالثأر قانوناً في مقام التجارة والتقديس؛ فلا تسامح، ولا سلام، يقر بين الأقوام، وهو الأمر الذي بعثر المجتمعات الجاهلية شذر مذر، ومنع نشوء حكومات مستقرة صالحة فيها.

وهذا ما حدا بالإمام ابن خلدون لأن يصوغ قانوناً تاريخياً آخر، يقرر فيه: «إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية، من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة. والسبب في ذلك أنهم لخلق الوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة في الرئاسة.

فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة، أو الولاية، كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة

منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والألفة، الوازع عن التحاسد والتنافس. فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق؛ تم اجتماعهم، وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق الوحش، القريب المعانة، المتهيب لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد، وسوء الملكات، فإن كل مولود يولد على الفطرة، كما ورد في الحديث»^(٤).

وفي معرض ذمّ قال الحطيئة وهو يعرض بإحدى قبائل العرب ويعيرها بحفظ الذمم والعهود والامتناع عن الظلم:

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ

وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ!

وقد استخدم الشاعر لفظ التصغير في الإشارة إلى القبيلة إمعاناً في التنكيل بها.

وقد عرف الجاهليون عواقب الحروب حق المعرفة، ومع ذلك لم يتقونها، بل تفاخروا بخوض غمارها، والاصطلاء بنارها.. وهذا حساس بن مرة يصف الحرب وهولها فيقول:

تَاهَبَ مِثْلَ أَهْبَةِ ذِي كَفَّاحٍ

فَإِنَّ الْأَمْرَ جَلَّ عَنِ التَّلَاحِي

وَإِنِّي قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ حَرْباً

تُغِصُّ الشَّيْخَ بِالمَاءِ الْقَرَّاحِ

مُذَكِّراً مَتَى مَا يَصْحُ مِنْهَا

فَتَى نَشَبَتْ بِأَخْرَافٍ غَيْرِ صَاحٍ!

ومنهم من خاض أعنف الحروب، لكنه انتهى إلى شجبها، ودعا إلى السلم، ومنهم قيس بن زهير القائل:

يُودِ سَنَانٌ لَوْ نَحَارَبُ قَوْمَنَا

وَفِي الْحَرْبِ تَفْرِيقُ الْجَمَاعَةِ وَالْأَزَلِ

يَكْدُبُ وَلَا يَخْفَى لِيُفْسِدَ بَيْنَنَا

دُبِيّاً كَمَا دَبَّتْ إِلَى حُجْرِهَا النَّمْلِ

فَإِذَا ابْنِي بَغِيضٍ رَاجِعَا السَّلَامِ تَسَلَّمَا

وَلَا تَشْمِتَا الْأَعْدَاءَ يَفْتَرِقُ الشَّمْلُ

وَإِنْ سَبِيلَ الْحَرْبِ وَعَرٌّ مُضَلَّةٌ

وَإِنْ سَبِيلَ السَّلَامِ أَمْنَةٌ سَهْلٌ!

(١) أخرجه البخاري، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٥٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٣) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، د.ت. ص ١٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٥١.

٥ - ومن نتائج هذه الحروب مسألة وأد البنات، وهي مسألة اجتماعية غاية في الخطورة. وقد أد العرب بناتهم لأسباب عدة، منها: عدم انفراط حالة السلام في مجتمعاتهم، وخشيتهم من الغارات التي قد تسبب نساءهم وبناتهم. وقد عاتبهم الله تعالى في ذلك بقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨].. وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به. الثانية: إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفاً من السبي والاسترقاق^(١).

٤ البحث عن السلام في العصر الجاهلي:

ولشناعة نتائج حالات انفراط السلام في المجتمعات الجاهلية، أخذ بعض عقلاء القوم، في ذلك العصر، يبحثون عن السلام، واعتبروا بأحوال الحرب، وتشوقوا إلى عيش السلام، ولهم في ذلك شعر تخلل شعر الحرب؛ منه المديح، حيث: «أشاد الشعر بمحاولات الساعين لإصلاح ذات البين، وإشاعة السلام، بين القبائل المتحاربة، واعتد ذلك عنصراً مهماً من عناصر الصفات المؤهلة للمدح»^(٢). ومن أمثلة ذلك قول الحارث بن حلزة يمدح ويدعو إلى الصلح:

أَعْمَرُوا ابْنَ فَرَّاشَةَ الْأَشِيمِ
صَرَمَتِ الْحِبَالُ وَلَمْ تُصَرِّمْ
وَأَفْسَدَتْ قَوْمَكَ بَعْدَ الصَّلَاحِ
بَنِي يَشْكُرَ الصَّيْدَ بِالْمَلْهَمِ
دَعَوْتُ أَبَاكَ إِلَى غَيْرِهِ
وَذَاكَ الْمُعْثُوقُ مِنْ مَائِمِ
كَفَى شَاهِداً إِلَى الصَّفَا
إِلَى مُلْتَقَى الْحَجِّ بِالْمَوْسِمِ
فَهَلَّا سَعَيْتَ لِصُلْحِ الصَّدِيقِ
كَسَعِي ابْنَ مَارِيَةَ الْأَقْصَمِ
وَقَيْسُ تَدَارَكَ بِكَرِّ الْعِرَاقِ
وَتَغْلِبَ مِنْ شَرِّهَا الْأَعْظَمِ
وَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدُوا بَيْنَهُمْ
وَذَلِكَ فِعْلُ الْفَتَى الْأَكْرَمِ
وَبَيْتُ شَرَّاحِيلَ مِنْ وَائِلِ
مَكَانَ الثُّرَيَّا مِنَ الْأَنْجَمِ!

(١) الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، د.ت. ج/ ١٩، ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨.

وقد نجمت ظاهرة طلب الثأر بسبب افتقاد المجتمع السلطة، الحكومية، الشرعية، القوية، الملزمة، التي تتولى إنفاذ أحكام القانون؛ ولذلك طفق المظلوم يأخذ القانون بين يديه، وينفذه كيف يشاء، ويوقع أحكام الثأر على من يجده من أهل الظالم، مجانفاً بذلك مبادئ النصفة التي لا تسمح بأن يؤخذ بريء بجريرة مجرم. واتخذت قضية الثأر بُعداً اجتماعياً مهماً في حياة الجاهليين، فما برحوا يحرمون على أنفسهم متع الحياة وزينتها، وتضخمت قضية الثأر في ضمائر الجاهليين، حتى غدت عقيدة لا يمترون في صحتها. وفحوى تلك العقيدة أن طائراً يقبل من جهة رأس المقتول ولا يني يصرخ مطالباً بالأخذ بثأره، ويحدو بأهله أن يشربوا من دم قاتله، ولا يهنا لهم عيش دون الأخذ بثأره، طال الزمن أو قصر.

٣ نتائج انفراط السلام في الحياة الجاهلية:

وقد أدى انفراط حالة السلام في حياة الجاهليين إلى نتائج سلبية عانت مجتمعاتهم منها طويلاً، من أهمها:

- ١ - انحسار ظل القانون، وتضاؤل سلطانه، وطغيان معيار القوة، الذي صار الحكم الأعلى.. فالقوي قاهر غالب، والضعيف مقهور مغلوب، ولا يمكن أن تنشأ حياة فاضلة على هذا المنوال، فالقوة ما لم يعادلها حكم القانون العادل تسمي داعياً ملحاً للغي، والبغي، والفساد.
- ٢ - انطباع حياتهم بالفوضى، والتتقل، وقلة الاستقرار، وذلك ناتج عن ضعف مدنياتهم، وانطباعهم بطباع الخشونة، وتضعف نظمهم، فلم يقدرُوا على أن يكونوا كالأمم التي عاصروها، وحكمتها دول قوية مستقرة، في فارس وروما.
- ٣ - رسوخ التخلف في حياة القوم، فما كانت حياة تفتقد حالة السلام بصالحه لنمو الحضارة والمدن فيها، فالحرب تهدم كل جهد، ولو ضئيل، يبذل في اتجاه تنمية تلك المجتمعات.
- ٤ - تناقص أعدادهم باستمرار؛ لأن أيام العرب، ووقائعها، أفنت أعداداً وفيرة منهم. والعجيب أن من عرب تلك الأيام من كان يفخر بتلك الظاهرة المدمرة للعمران، ويقول مباهاياً:

إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلِنَا

قَوْلُ الْكُمَاةِ أَلَا أَيْنَ الْحَامُونَا؟!

ومبعث ذلك أن المنذر بن ماء السماء كان قد أصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس، وأرسل أعلام الحيين وأشرافهما إلى مكة، لينزعوا ما في صدورهم من ضغن وغل، وأوكل تنفيذ ذلك الصلح إلى قيس بن شراحيل بن مرة بن همام، فمدحه الحارث بهذه الأبيات.

ومن شعر السلام عند الجاهليين ما اتخذ مسرب الرثاء، ومن ذلك شعر جلييلة بنت مرة الشيبانية، أخت الجساس الذي قتل كليلاً زوجها، وقد أخرجوها من مآتم كليب؛ لأنها أخت واتره، وقالت لها أخت كليب: رحلة المعتدي، وفراق الشامت، ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة!

فردت عليها جلييلة تقول: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها، وترقب وترها؟! أسعد الله جدّ أختي، أفلا قالت: نُفرة الحياء وخوف الأعداء؟!^(١)

ثم جاءت جلييلة أباهاً فسألها: ما وراءك؟ قالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ غير قليل، وبين دين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد، وأنشأت تنشد من شعرها:

يا ابنة الأعمام إن لمت فلا
تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينتي الذي
يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئ ليمت على
شفق منا عليه فافعلي
جلّ عندي فعل جساس فيا
حسرتي عمّا أنجلي أو ينجلي
فعل جساس على وجدي به

قاطع ظهري ومُدنّ أجلي
يا قتيلاً قوض الدهر به
سقف بيتي جميعاً من عل
هدم البيت الذي استحدثته
وانثنى في هدم بيتي الأول
خصني قتل كليب بلظى
من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليوميّه كمن

إنما يبكي ليوم ينجلي
يشتفي المُدرِك بالثأر وفي
دركي ثأري ثكل المثل
أيتّم المجد كليلاً وحده
واستوى العالي معاً والأسفل

من لحكم الناس في حيرتهم
وقرى الأضياف يوم البزل
ولإصلاح وإفساد معاً
في صدَى الرُمح وريّ المنصل!

فهي قطعة قوية من الشعر، تنبض بالأسى الحارق، وتكمن قيمتها التاريخية في أنها واحدة من أقدم قطع الشعر العربي التي وصلت إلينا، كما أنها أقدم قطعة تعرف لشاعرة عربية على الإطلاق، وهي بعد ذلك كله زاخرة بتصوير الوضع الاجتماعي، الحربي، لذلك العهد البعيد، وشديدة الدعوة للتخلص من عقابله الوبيلة.

ومن الشعر الجاهلي الذي دعا إلى السلام شعر النصح والإرشاد، ومن ذلك شعر زهير بن أبي سلمى:

وما الحرب إلا ما علمتم ودقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم^(١)
مَتى تَبَعْتُهَا تَبَعْتُهَا ذَمِيمَةً
وَتَضَرَّ إذا ضَرَيْتُمُوهَا فَتَضَرَّم^(٢)
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثَالِهَا
وَتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تَحْمِلْ فَتَنِيم^(٣)
فَتُنْجَ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَقْطِم^(٤)
فَتُغْلِلَ لَكُمْ مَا لَا تُغْلِلُ لِأَهْلِهَا
قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمٍ^(٥)

وللشاعر في هذه الأبيات إشارة سديدة إلى ما تتجلبب الحرب من أجيال السوء، والجنوح، والشر.

استخلاص:

وهكذا بلي أناس العصر الجاهلي بشرور حالات انفراط السلام، وخبروها عن قرب ومعايشة، وذاقوا مرارتها وضراوتها، وغدوا يستشرفون عصراً جديداً يأتي بقيم جديدة تعلي من شأن حالة السلام، وتظلل بها مجتمعاتهم.. ولذا كانت استجاباتهم عظيمة لنداء الإسلام ودعوته الكبرى إلى السلام، فكأنما كانت حياتهم السابقة خير تمهيد أعددهم لقبول نقيضها، المتمثل في قيم الإسلام، والتسامح، والإخاء، والوثام.

(١) المرحم: المظنون.

(٢) ضريتُموها: أوقدتم نارها.

(٣) تلقح: حمل الولد، تنثم: تلد توأمين.

(٤) أحمر عاد: قصد أحمر ثمود اتساعاً وهو من عقر الناقة.

(٥) تغلل لكم: أي تغل لكم من الديات بدماء قتلاكم ما لا تغل قرى العراق من المحصولات الوافرة. قفيز: مكيال ثمانية مكايك.